جامعة السلطان قابوس
مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

Sultan Qaboos University
Journal of Arts & Social Sciences

مراجعاتٌ في كتاباتٍ نقديةٍ عربية:
البنيوية التكوينية للوسيان جولدمان

محروس محمود القللي

أستاذ مساعد
قسم اللغة العربيّة وآدابها
كلية الآداب والعلوم الاجتماعيّة
جامعة السلطان قابوس
سلطنة عُمان
m.alqalili@squ.edu.om

تاريخ الاستلام: ٢٠٢١/١١/١٤
تاريخ القبول للنشر: ٢٠٢٢/٠٤/١٣

مراجعاتٌ في كتاباتٍ نقديةٍ عربية: البنيوية التكوينية للوسيان جولدمان

محروس محمود القللي

الملخص

تهدف الدراسة إلى تحديد دور "جمهور المتلقين" في الحقل النَّقْديّ العربيّ، والحقل النَّقْدي الذي وُجدوا فيه، والكيفيّة التي تعاملوا من خلالها مع الإجراءات النَّقدية النظرية للمنهج. لقد كثُرت الدراسات النَّقدية المتعلقة بالنَّقد الاجتماعيّ للأدب في العالم العربيّ بدءًا من خمسينات القرن الماضي؛ نظرا إلى مواءمة آلية المنهج مع الأوضاع السياسية والاجتماعيّة. وعلى الرغم من ذلك، فإن ما نُقلَ عن هذا المنهج وتنوعاته المختلفة إلى الحقل النَّقْديّ العربيّ اتَّسم في مجمله بالقلة في مقابل المصدر. وأقصد بالقلة هنا ندرة الدراسات المتعمقة التي تتابع هذا الإنتاج النَّقْدي من أصوله النظرية في العلوم الإنسانية إلى تطبيقاته المختلفة المتعددة. وفي بعض الأحيان أصاب هذا النقلَ بعضُ التشويه؛ نظرا إلى النقول المتواترة عن المصادر الوسيطة، أو إلى التعدد في ترجمة المصطلح الواحد.

وفي هذه الدراسة أقدم بانوراما نقديةً مركّزةً، توضّح أُفُق التَّوقُّع الذي يرسم صورةً للظروف التي تلقّى خلالها بعض النقاد العرب "البنيوية التكوينية". وتقوم الدراسة على بعض الدراسات النظرية "البنيوية التكوينية" في مستواها النظريّ العربيّ. وآمل أن تُمكننا هذه الدراسة من النظر عن قرْبٍ في النتائج التي تفضي إليها الدراسات النظرية حينما تغفل عمق المنهج، وكذلك مرجعياته وأدواته.

الكلمات المفتاحية: علم اجتماع الأدب؛ البنيوية التكوينية؛ لوسيان جولدمان؛ التلقي النَّقْدي؛ النقد الاجتماعيّ.

Reviews in Arab Critical Writings: Lucien Goldman's Genetic Structuralism

Mahrous Alqalili

Abstract

The present study aims at identifying the role of the recipient audience in the Arab critical field, the critical field in which they found themselves, and how they dealt with the theoretical critical procedures of the approach. Critical studies related to the social criticism of literature have increased in the Arab world since the 1950s due to the compatibility of the mechanism of the approach with the political and social conditions. However, what was translated about this approach and its various variants to the Arab critical field was little compared to the source. By “little” here I mean paucity of in-depth studies that trace this critical output from its theoretical origins in the humanities to its various applications. Sometimes this translation was somewhat distorted due to frequent re-current translations from intermediate sources, or to the multiplicity of translations of the same term.

This study provides a focused critical panorama that illustrates the horizon of expectation that draws a picture of the circumstances during which some Arab critics received "genetic structuralism". The study is based on some Arab theoretical studies on genetic structuralism. It is hoped that this study will enable us to look closely at the results which these theoretical studies come up with when they ignore the depth of the approach, as well as its references and tools.

Keywords: Sociology of literature; genetic structuralism; Lucien Goldmann; critical reception; social criticism.

المقدمة

الخلفية النظرية

يُحدَّد مفهوم "أُفُق التَّوقُّع" horizon d'attente بوصفه منظومةً من معايير ومرجعيات يمتلكها جمهور قرَّاءٍ في لحظة معينة، يُقرأ انطلاقا منها قراءة عمل، ويُقوّم جماليًّا. ويعود مصطلح "أُفُق التَّوقُّع" في علم اجتماع الأدب إلى مقاربات هانس روبرت ياوس H.R. Jauss (1921-1997). وسنحاول في دراستنا هذه الإفادة من هذا المدخل النظري في قراءة الأعمال النَّقدية في مصدرها الأصلي، وأفق تلقِّيها في الحقل النَّقْديّ العربيّ. وقياسا على دراسة "أُفُق التَّلقِّي" للنص الأدبيّ، فإن الدراسة ستعدّ كلَّ عملٍ نقديٍّ نظريٍّ نصًّا ينتج عن علاقة تفاعلية بينه وبين القارئ. ويأتي دور القارئ/الدارس في توظيف معارفه حول هذا التوجه النَّقْدي ثم العمل على توجيهها إلى تفسير النص النَّقْدي؛ ومن ثم يتمكن الناقد أو الدارس من إضاءة المحاور الغامضة في النظرية في الحقل الجديد المتلقى.

ولعل بعض الأعمال النظرية العربيّة التي تبنت عبء نقل المنتج الغربي إلى الحقل الثقافيّ العربيّ تحتاج إلى وقفةٍ متأنية تحدد آفاق التلقي، من عوامل ثقافية، وأكاديمية تصف الأجواء حول الساحة النَّقدية، قبل أن تصف الأعمال النَّقدية التي تمثل متن هذا البحث. ومن ثم يأتي دور الناقد/الدارس العربيّ تجاه منهج "البنيوية التكوينية"؛ ليعلن بعمله عن بلورة أبعادها بطريقة جيدة مثالية، أو في المقابل، بطريقة تشوّه أبعادها وإجراءاتها.

وانطلاقًا من فكرة "التلقي" يمكننا مقاربة تلك الأجواء حول "البنيوية التكوينية" من خلال عدد من المداخل، نجملها فيما يأتي: أولها - التجربة التي يمتلكُها جمهور النقاد المصريين والسوريين - من خلال العينة المدروسة - عن هذا التوجه النَّقْد (البنيوية التكوينية) في لحظة معينة. وهذا المدخل يُعلي من قيمة البحث عما خضع له المنهج من انتقاء أو شموليةٍ. ويوجهنا هذا الإجراء إلى الموازنة بين "أفق توقُّع الجمهور من النقاد" و"أُفُق التَّوقُّع الذي يقدمه العمل النَّقْديّ الأصليّ" فيكون التطابق، أو الرفض، أو الاستنكار أو الخيبة. والثاني - يتمثل في موضوع الأعمال النَّقدية السابقة في الحقل الثقافيّ العربيّ، وهذا يستلزم فحص قيمتها النَّقدية، لاختبار مدى استعداد الناقد العربيّ لتلقِّي مثل هذه الموجة النَّقدية. ونعني هنا، موجة النَّقْد التاريخيّ والاجتماعيّ، وهما الأكثر دورانا في تاريخ النَّقد العربيّ المعاصر. وسنشير إليها بطريقة إجماليةٍ؛ نظرا إلى افتراض إحاطة القارئ بها، ولأنها خضعت لكثيرٍ من الاختبار في الدرس النَّقْدي العربيّ. وأخيرا، يأتي دور النظر في حلقة الانزياح والتفاوت الذي أصاب النصوص النظرية النَّقدية العربيّة، وهل هي - كما نظن دائما - انزياحاتٌ تفتقر إلى الكشف عن أبعادها، وهل تشكل قطعا، في ظنِّ القارئ، داخل أُفق توقُّع الجمهور النَّقْدي. (يراجع: Rice, Ph. & Pageaux, 1994: 50- 51) Waugh, p. 1989: 105).

يُحدد مفهوم "أُفُق التَّوقُّع" بوصفه منظومة من المعايير والمرجعيات لجمهور قرَّاءٍ في لحظة معينةٍ، نقرأ انطلاقا منها قراءة عملٍ وتقويمه جماليا. فأيُّ عملٍ لا تعلو قيمتـه إلا مـن خلال عملِ القراءة، والقراءة وحدها هي التي تجعله حاضرا. وننطلق من البُعد النظريّ في التلقِّي لمقاربة رؤية نقديةٍ مهمـة، تركت أثرها في الحقل النَّقْـديّ العـربيّ بصـورة مختلفـةٍ، اتسمت في مجملها بالاجتزاء، وهي "البنيويـة التكوينيـة" Structuralisme génétique للوسيان جـولدمـان Lucien Goldmann (1913-1970). ونجد أن بعض الأعمال النظرية العربيّة التي تبنّت عبء نقل المنتج الغربيّ إلى الحقل الثقافيّ العربيّ تستحق وقفةً متأنية، لا لتحديد دور الناقد/الدارس العربيّ تجاه هذا المنتج، بل لقراءة "أفق توقع" جمهور النقاد من خلال الحقل الثقافيّ والنَّقْدي الذي عاشوه، أو بمصطلحات التلقي، تلك الأعمال التي كانت في حالة حوار مع المصدر التي نقلت عنه.

تقارب الدراسة عينة من كتابات نقدية لعدد من النقاد العرب؛ للوقوف على مدى إسهامهم في خلق حالة معينةٍ من الحركة النَّقدية. ونراقب ذلك من خلال المراقبة التأريخية لجيل واحد من النقاد، ليس لقياس القراءة الفردية لأحد هؤلاء، أو لقياس أفقِ توقُّع وحدَه، بل لرسم صورةٍ متكاملة عن جيل متلاحق في مكان واحد قدر المستطاع. وقد تكشف لنا طريقة الدراسة عن مفاجآت تعلنها حالة خيبة أمل التلقي، حيث نجد أن هناك أعمالا أساءت إلى الحركة النَّقدية العربيّة، وأخرى اعتمدت على نصوص نقدية غربية دون التدليل على ذلك. وقد يكون المدى الزمنيّ الذي نختبره هنا بالدرس النَّقْديّ مدى واسعا إلى حدٍّ ما؛ وهذا من شأنه أن يساعد في البرهنة على نجاعة الدراسة، وأهمية النتائج التي تتوصل إليها. وقد أشار "جادمير" Gadamer في كتابه "النقد والحقيقة" إلى أهمية طول المدى الزمني التي يستغرقها عامل التلقي في الكشف عن صلاحية قياس مدى التلقي. (Gadamer et al. 1965).

لقد أُتيحت لنا فرصة قبل ذلك على أحد المنابر العلمية للحديث عن أسباب تأخر قيمة الحس النَّقْدي لدى الطلاب والباحثين، وتمثلت هذه الفرصة خلال لقاءين:

- الأولى - في قراءة نقدية منشورة حول عملية التلقي النَّقْدي في النقد الأكاديمي المعاصر (القللي، ٢٠١٠). لظاهرة الشعر العذري. وكان النموذج الخاضع للنقد القراءةَ المشهورة التي قدمها "الطاهر لبيب جديدي" بعنوان "سوسيولوجيا الغزل العربيّ، الشعر العذري نموذجا". وهي أطروحته التي قدمها في جامعة باريس بإشراف جاك بيرك Jacques Berque عام ١٩٧٢. وقد ترجمها إلى العربيّة لأول مرة حافظ الجمالي عام ١٩٨١، ثم ترجمها مصطفى المسناوي، عام ١٩٨٧، ثم ترجمها مؤلفها نفسه. وقد رأينا (الطاهر لبيب) وقد قدم دراسته دون العودة مطلقا إلى قراءة لوسيان جولدمان للشعر الفرنسيّ، على الرغم من تبنِّيه البنيويةَ التكوينيةَ في تحليل ظاهرة الشعر العذري. أضف إلى ذلك عدم الانطلاق من مصطلحات "لوسيان جولدمان" في الدراسة.

- الثانية - في دراسة حول أسباب ضعف العمل الأكاديمي المتمثل في متاهة توحيد المصطلح وتنميطه في النقد العربيّ. وكان ذلك في دراسة تقدمت بها عام ٢٠٠٩، تعالج قضية صياغة المصطلح في النقد الأدبيّ العربيّ بين الترجمة واستحالتها (القللي، ٢٠٠٩). وكانت النتيجة الأساسية متمثلة في استحالة اتِّفاق الترجمة في ظل اختلاف مبدأي "أُفُق التَّوقُّع" و"التأثير" معا، ونظرا إلى التفاوت بين الأفقين: الأول - حالة النقد الأدبيّ في العالم العربيّ، وتشرذمه تجاه القضايا المنقولة عن الغرب في التفسير والاصطلاح، وهو ما يرسم حالة المتلقي، وأفق توقعه. والثاني- أفق المادة العلمية المنقولة بما يعضدها من معطيات نقدية وفلسفية، ودراسات متنوعة، نظرية وتطبيقية.

ونتطرق في هذه الدراسة إلى قضية ثالثة تتمِّم هذه الدائرة الوصفية لحالة المتلقي في النقد الأدبيّ العربيّ؛ للبرهنة على ما تقدم ذِكْره من نتائج. وننتقل إلى عنصر ثالث يتمثل في التنظير (الدراسات النظرية) وأفق توقُّع جمهور الدارسين قياسا على أُفُق توقُّع المنقول بمرجعياته: ونتساءل في المقام الأول عن مدى مخالفة أُفُق التَّوقُّع الناتج عن فرق الكفاءة؛ فهناك ماكينة نقدية منتجة دون توقف في (فرنسا) وأخرى عربية تعزف على وتر واحد، أساسه الانتقاء وأحيانا [التشويه]. ونحن نعلم ما الانتقاء، حيث القفزُ على السنين، والقناعة بما بين أيدينا، وإقناع الباحثين بعدم جدوى النقد أمام الأدب إذا تعدى النص، والتضليل بدعوى توقف الغرب عن تناول بعض النظريات النَّقدية في هذه الأيام، وأنّ الأدب لا يوجد إلا في نصوصه، فبانت فئة من النقاد يتعتعون في فهم العربيّة، ولا يجيدون نصوصها، وبرعوا في تقديم نماذج نقدية أصابت العقل الشاب بالخلل، فحاول مع هذه النصوص، فألجأه (النتُّ) إلى التشويه، وأضحت الجهود موجهة إلى التأليف بين المتناقضات. وهؤلاء الذين يقومون بهذا العمل [التأليفي] دائما كالسحرة يقنعوننا بأن التاريخ فوضى، وأن المؤرخين فوضويون، وأن المصدر في النص، وأن التحليل نصٌّ محض، وما دونه جهل وعته، وكأنهم أنبياء الغرب في الشرق. وهذا يعكس الفوضى التي نعيشها في مستوى النزاع البحثي داخل أروقة الأقسام المتخصصة. إن الدعوات الحقيقية للنقاد لا تقتل بحثا، ولا تقتل منهجا، ولكنها تؤسس لجديد. ونعلم الآن أن ما ينتشر في عالمنا العربيّ من توجهات بحثية معاصرة ادعاءً، هي من نهايات التاسع عشر في أوروبا، ولا يتعدى جديدها ستينات القرن الماضي! وهذا ما نجملُ به اختصارا تقديم أُفُق التَّلقِّي لجماعة النقاد العرب في الربع الأخير من القرن العشرين، وإلى الآن، حيث الانتقاء، والتشويه، والمخالفة، والتوجيه المتشدد، والإنكار للآخر العربيّ، والمقاتلة للدفاع عن مصطلح مصري في مواجهة آخر مغاربي، أو لبناني.

من الضروري تصدير هذا الموضوع بالنتيجة التي تفيد بأنه من الصعب أن نجد ناقدا عربيا تبنى وجهة نظر نقدية غربية وأتمها حتى نهايتها. ولعل المقصود هنا هو تمثل هذا الناقد العربيّ للأفكار المرجعية لأيٍّ من تلك المناهج، أو حتى الوقوف على موسوعية العمل النَّقْدي لدى الأفراد والمؤسسات الأجنبية.

وما نقدمه هنا "بانورما" نقدية لأعمال نقدية تنظيرية عربية، توضح هذا الأفق المخالف أحيانا، أو المغالط في بعض الأحيان؛ لنتبين أثره في توجيه آلة النقد العربيّ.

٢. أُفُق التَّلقِّي من خلال بعض الدراسات النَّقدية:

كيف أفاد النقد العربيّ من النقد الفرنسيّ؟ بل كيف تلقاه؟ وما ظروف هذا التلقي في الحقلين الثقافيّ والنَّقْديّ العربيّين؟ إن هذه التساؤلات تقودنا قبل البدء في توصيف عملية التلقي إلى الوقوف على كيفية التأثر، ومساحته، كذلك نتساءل: هل كان هذا التأثر أعمى أم كان واعيا؟

أكد (جادامير) أن طول المدة الزمنية التي يستغرقها عامل التلقي هي التي يمكن أن تكشف عن صلاحية قياس مدى التلقي (,1995 Gadamer). وحقيقة الأمر، أنّ المدة قد طالت من عام ١٩٦٦ الذي يمثل المقالة الأولى التي تبنت تقديم "البنيوية التكوينية" إلى القارئ العربيّ، وحتى يومنا هذا، وما زالت الدراسات التي تقترب من علم الاجتماع في الزيادة، وما زال اجترار اسم جولدمان في الحقل النَّقْدي في اضطراد.

ونقرأ واقع العمل النَّقْدي النظري، ومن ثم أبعاد أُفُق التَّلقِّي عند جمهور النقاد من خلال بعض أهم الأعمال النظرية الأولى التي بشّرت بالبنيوية التكوينية ونركز فيها على حالة التلقي في مصر وسوريا، ومن ثمّ نختبر أثرها المتوقع نظريا وتطبيقيا. ويتنوع النموذج المدروس بتنوع أصحابه، حيث نجد بعض ألمع النقاد العرب، مثل الناقدين المؤثرين: محمود أمين العالم (١٩٢٢-٢٠٠٩)، والناقد جابر عصفور (ولد: ١٩٤٤). ومن جانب آخر، يوجد عدد من الدارسين الذين استرعوا النظر بما قدموه من دراسات ترسم معالم الحقل النَّقْدى المتلقى في مصر خاصة.

يقدم محمود أمين العالم عام ١٩٦٦ مقالتين تركتا أثرا وشهرة في مجال البحث في النقد الاجتماعيّ، وبخاصة في الذين يطبقون إجراءاته في تأويل النصوص الأدبيّة. المقالة الأولى بعنوان: "البحث عن أوربا: نقد جديد أم خدعة جديدة" (العالم، أكتوبر ١٩٦٦)، والأخرى بعنوان: "البحث عن أوربا: الأدب وقوانين السوق" و(العالم، نوفمبر ١٩٦٦). وقد كان العالِم، من الأوائل الذين نقلوا الأفكار البنيوية إلى الحقل الثقافيّ العربيّ، بحيث يمكن القول: إن ما قدّمه العالم كان ترجمة فورية لما كان يحدث آنذاك في أوروبا. وقد كان هذان المقالان المبكران دليلا على هذا التاريخ المتقدم في التعامل مع مستجدات ما تقدمه القريحة الأجنبية في مجال النقد الأدبيّ. ويعالج المقال الأوّلُ منهج لوسيان جولدمان، معلنًا فكرة عدم وجود نقاط تجديد في منهج جولدمان قياسا إلى قدمه أستاذه جورج لوكاش Georges Lucas (١٨٨٥-١٩٧١). ويعكس مضمون هذه المقالة أن قراءات (العالِم) فيها كانت معتمدة على نقاط النقد والتعليق التي قدمها الدارسون الفرنسيّون ضد آراء جولدمان، ومن ثم بنوا رفضهم على عدد من نقاط النقد. ومن تلك المحاور النَّقدية أن جولدمان ما هو إلا مقلدٌ لفكرة الانعكاس، وأنّ الإجراءات البحثية التي يقدمها ما هي إلا إجراءات محدودة على المستوى التحليلي.

إن هذا التعامل الفوري المتزامن في النقد العربيّ، وبخاصة عند "محمود أمين العالم" له دليل من التاريخ -فقد نشرت المقالة عام ١٩٦٦- مجسِّدة أُفُق التَّلقِّي لحالة النقد التي تدور في أروقة الجامعات الفرنسيّة، والمنتديات الثقافيّة قبيل عام ١٩٦٨ (ثورة الطلاب). والدليل الآخر، هو أن "العالِم" قد صاغ عنوانا مطابقا لكتاب يؤرخُ به للنقد الحديث في فرنسا، ولتغيّر وجه النقاد في الستينات، وهو كتاب "ريمون بيكار R. Picard" (1917-1975) "نقد جديد أم مصادرة جديدة" Nouvelle Critique ou nouvelle imposture الذي صدر في باريس عام ١٩٦٥. وعنوان مقالة "العالِم" هي "نقد جديد أم خُدعة جديدة". وحقيقة الأمر، فإن محمود العالم يعدّ من بين النماذج العربيّة القليلة التي تمثّلت منهج "لوسيان جولدمان" وأبعاده الفلسفية العميقة. ولكننا نلمس في بعض الأحيان غياب توثيق عدد من الأفكار.

وعلى الرغم من تأثُّر محمود العالم بسياق عتبة العنوان الذي صاغه الفرنسيّ "ريمون بيكار" فإن الأمر يحتاج إلى شيء من التوضيح لقياس "المسافة النَّقدية" بين الأفقين: الفرنسيّ، والعربيّ.

كان "بيكار" من أنصار النقد التقليدي في فرنسا، وحاول الانتصار للمنهج الذي يتبناه هو وأقرانه في أروقة جامعة السوربون التي انتقل للعمل إليها في عام ١٩٦٣(Robichez: Universalis) وهي مرحلة إرهاصات النضال النَّقْدي للتحول من الطبيعة التاريخية إلى التناول النَّصِّيِّ. ويصف الناقد الأمريكي "جوناثان كولر G. Culler" هذا الحقل النَّقْدي الذي يوضح أُفُق التَّلقِّي للبنيوية الزاحفة على المشهد النَّقْدي الفرنسيّ بقوله: "حتى عام ١٩٦٥ كان بارت Barthes شخصيةً نشطة لكن هامشية في المشهد الثقافيّ الفرنسيّ، حتى قام أستاذ في جامعة السوربون يُدعى ريمون بيكار بنشر كتاب بعنوان "نقد جديد أم أكذوبة جديدة؟" هاجم فيه بارت بوجه خاص، وتضمّن اتهامات جعلت من بارت، بعد تناولها وإعادة صياغتها في الصحافة الفرنسيّة، ممثلا لكل ما هو متطرف، وفاسد، عديم الاحترام في ميدان الدراسة الأدبيّة...وسرعان ما تحوّل الشجار إلى معركة شاملة بين القدماء والمحدثين، جعلت لبارت سمعة سيئة على مستوى العالم. وجاء كتاب "نقد وحقيقة" ١٩٦٦ ردا على اتهامات بيكار، ويدعو إلى علم أدب بنيوي. (كولر، ٢٠١٦: ١٧- ١٨، ٥٧- ٥٨).

وقد كان الصراع في الحقل النَّقْديّ العربيّ -بالموازة- قائما بين ناقدٍ تحرر من العمل الجامعي، وهو محمود أمين العالم، والقائمين على النقد الأكاديمي في الجامعة آنذاك. فقد ولد محمود أمين العالم عام ١٩٢٢، ودرس الفلسفة في جامعة القاهرة (فؤاد الأول) ثمّ عمل بالجامعة نفسها، وفُصل منها بعد ذلك عام ١٩٥٤ بسبب انتمائه إلى الحركة الشيوعية، وبعدها سافر إلى فرنسا ودرّس الفكر العربيّ المعاصر في جامعة باريس (العالم، ١٩٩٧: ١٦٣- ٢٠٦) (الحكيم، ٢٠٠٦: ١٣).

وليس الغرض من هذه المقارنة إثبات تماثل التوجه الذي تبناه كل من ريمون بيكار، وورلان بارت، ومحمود العالِم، بل إثبات ذلك التوازي في الأجواء التي أحاطت بكل منهم؛ فقد كان العالِم متجها بقوة نحو الشيوعية متأثرا بأفكارها الاجتماعيّة النشطة نحو التغيير الجذري للمجتمع؛ ومن ثم كان متحمسا للواقعية، وللنقد الاجتماعيّ الانعكاسيّ على طريقة "لوكاش". ولذلك، كان نقده لجولدمان منطلقا من قناعاتٍ فكرية، حيث آمن "العالِم" بعدم وجود محاور تجديد لدى جولدمان وأنه لم يتخطَّ أفكارَ أستاذه لوكاش. ولكنَّ الفرق بين أفقَي الحقلين الثقافيّين في مصر وفرنسا، يتمثل في أنّ ذلك النضال الحزبي والثقافيّ والأكاديمي الذي وصفه محمود العالم نفسُه في الستينات وما قبلها (العالم، ١٩٨٤: ٣٤) قد خَبت جذوته. وهذا بدوره قد ترك أثره في رسم معالم أُفُق التَّوقُّع لدى جمهور النقاد الذين جاؤوا بعد ذلك؛ أي فيما أتى من محاولات نقدية اتسمت في مجملها بالانتقاء، وبالتشويه في جانب منها.

ترد في كتاب السيد ياسين (١٩٣١-٢٠١٧) (التحليل الاجتماعيّ للأدب، ١٩٧٠) فكرة شهيرة، هي أنَّ "التحليلات التي يقدمها جولدمان لا تتعلق بالنقد الأدبيّ، وأن أعماله تأتي فيها المسألة الجمالية بطريقة ثانوية (ياسين، ١٩٩٢: ٩١)". وقد طُرحت هذه الفكرة قبل ذلك في مقالة محمود أمين العالم (العالم، ١٩٦٦: ٣٥). وربما يبدو الوصول إلى مثل تلك النتيجة طبيعيًّا لكل ناقدٍ، يقدم قراءة حول النقد الأدبيّ الحديث، ويتمثل دراسة إسقاط مصطلحات العلوم الإنسانية على التحليل الأدبيّ.

ونجد فكرة غياب المنزع الجمالي النَّقْدي عن نظرية جولدمان في كتابات أجنبية متعددة؛ فالفكرة التي قدمها السيد ياسين نجدها لدى سيرج دوبرفكسي Serge Doubrovsky (1928-2017)، وهو من بين النقاد الأكثر تأثيرا وذِكْرًا في النقد الأدبيّ في فرنسا، بعد طرحِه السؤال الآتي في عنوان كتابه: "لماذا النقد الجديد؟" ويقول في هذا الكتاب: "إن النقد الأدبيّ كما يتبناه جولدمان يأتي ثانويا، أو بالأحرى في المرتبة الثانية بعد الدراسة الاجتماعيّة" (Doubrovsky, 1966: 134, 135). وقياسا على "المسافة الجمالية" التي طرحها "ياوس" نقول: إن "المسافة النَّقدية" بين أُفُق التَّلقِّي لدى "ديبروفسكي" و"جولدمان" لم تكن طويلة، وكان ما قدمه كتاب "لماذا النقد الجديد؟" ردًّا مباشرا على المنحى التاريخي النَّقْدي في فرنسا. ولكن، فيما طرحه السيد ياسين وغيره، لا نجد أثرا لفكرة دوبروفكسي، وقد كانت فكرة منتشرة ضد التوجه الجولدماني، وربما يكون غياب ذلك الأثر لشيوع الفكرة، أو لمنطقية الاستنتاج. ولكن في حقيقة الأمر، فإن المتتبع لكتاب السيد ياسين، سيجد أثرا لكثير من تلك الأفكار التي لا يمكن اجتراحها إلا في الحقل النَّقْدي الذي ظهرت فيه آلة المنهج.

ولقياس البعد الذي تقوم عليه رؤية السيد ياسين مقابل الأفق النَّقْدي الأصلي، نذكر أن السيد ياسين قد أقام في فرنسا لدراسة القانون بين عامي ١٩٦٤ و١٩٦٦، وهي الفترة التي اهتم فيها بعلم اجتماع الأدب. وقد سافر محمود العالم كذلك بعد أزمته في مصر إلى باريس عام ١٩٦٣، ليتزامن وجوده مع فترة ازدهار اتصال النقد الأدبيّ الأكاديمي بالعلوم الإنسانية، وبخاصة بعلم

الاجتماع. وقد كانت باريس تموج بالأفكار في تلك الفترة لتؤسس لمناهج النقد الأدبيّ الحديث متأثرة بالعلوم الإنسانية واللسانيات.

ونبتعد أكثر من ذلك، لمراجعة أُفُق التَّلقِّي النقلي في الحقل العربيّ من خلال بعض الحالات التي تبتعد فيها المسافة النَّقدية. ونذكر أنه في بعض الحالات، يعتمد الناقد العربيّ على نقْل بعض أفكار الآخرين الذين ورثوا المنهج في حقله، وفي أحيان أُخَر يكررون معالجتها، وفي بعض الأحيان تكون لغة الكتابة متعالية على الدقة، فيسوق الدارس -في أحسن أحواله- بعض الأسماء الأجنبية، ولكنه لا يسوق لها مصدرا. وقد توجد هذه الظاهرة على نطاق واسع، ولا نريد التوقف عند توصيف أسبابها هنا، إلا في حدود قياس المسافة النَّقدية بين الأفقين: في المصدر، وفي الجانب المتأثر.

يبدو الناقد السوري جمال شحيد أكثر جرأةً؛ لأنه سيقدم أول كتاب عربي يحمل عنوان (البنيوية التركيبية، دراسة في منهج لوسيان غولدمان، ١٩٨٢)، وتكمن جرأته في التناول المنهجي الواثق، وفي كيفية التعامل مع المصدر! وقد قُدم هذا الكتاب في فترة كان الحقل النَّقْديّ العربيّ يخلو من أيّ كتاب مترجم عن جولدمان، وكذلك من أيَّة مقالة متكاملة تشفي الغليل حول منهجه.

وننظر مباشرة إلى شق التوثيق في هذا الكتاب، حيث نتناول فكرة أُفُق التَّوقُّع بشيء من القرب. فبعد أن قدَّم شحيّد تعليقا عن رواية "البصاص Le Voyeur" لـلروائي الفرنسيّ "آلن روب جرييه Robbe-Grillet" حول موضوع علاقة الرواية بالمجتمع الرأسمالي في فرنسا، يطرح سؤال مطولا:

"لماذا وُلدت الرواية الجديدة في فرنسا (باريس) ولم تولد في إنجلترا، أو أمريكا، أو ألمانيا؟ ثم يعقّب بطرح تفسير ينكر به على النظرية أنها لم تجب عنه، وبخاصة في كتاب جولدمان "مقدمات في سوسيولوجيا الرواية". (شحيد، ١٩٨٢: ٥٧- ٥٨). واختصارا، فإن هذا هو التساؤل نفسه بنصه ومفرداته، الذي طرحه في وقت مبكر الناقد التشيكي بيير زيما P. Zima في كتابه "جولدمان، جدلية الحضور، ١٩٧٣، Goldmann, dialectique de l'immanence ". (Zima, 1973: 120). و(زيما) من أشهر نقاد جولدمان والبنيوية التكوينية، بل إنه صاحب الاتجاه النَّصِّيّ في النقد الاجتماعيّ. وقد نُقلت بعض أعماله إلى اللغة العربيّة. ولكي تتبلور فكرة أُفُق التَّوقُّع في الناحية المصدر، فقد نشر "زيما" كتابه بعد وفاة جولدمان بثلاث سنوات، وأتبع ذلك بعدد من المؤلفات المباشرة التي تتناول الحقل نفسه بشكل يدل على الاستمرارية والتطور. ويمكن مراجعة ذلك التنوع في أيَّة قائمة ببليوجرافية. أضف إلى ذلك، أن "زيما" قد حصل على الدكتوراه من باريس عام ١٩٧١، وعلى دكتوراه الدولة منها كذلك عام ١٩٧٩ (The Academy of Europe: 2021) في المجال نفسه. ومن ثم يمكن القول: إن أُفُق التَّوقُّع لدى المتلقي الأول (زيما) كان مطابقا لأفق توقع المصدر المنهجي حال صدوره، بل طور في أدواته للانتقال من بنى جزئية موضوعاتية، تتكون منها النصوص في "البنيوية التكوينية" إلى بنى نصية اجتماعية تسهم في بناء النص في "سوسولوجيا النص" عند زيما.

وإذا انتقلنا إلى "أُفُق التَّلقِّي" في الحقل الثاني المتأثر، والحالة هنا حالة شحيد -مثلا- فإنه يصعب إعادة طرح سؤال كتابه المذكور هنا من باب توارد الخواطر بينه وبين "بيير زيما". ومعلوم أن جمال شحيد من كبار المختصين في دراسة النقد الأدبي المقارن في العالم العربيّ، علاوة على جهوده المتواصلة في مجال الترجمة من الفرنسيّة وإليها، وقبل ذلك، فقد كان في باريس قبيل عام ١٩٧٤، وهو عام حصوله على الدكتوراه من جامعتها. ولا تُنكر أهمية الكتاب الذي قدمه شحيّد في البنيوية التكوينية في الحقل النَّقْديّ العربيّ. وقد قال فيه جابر عصفور: "وهو كتابٌ يتميز بدقة الفهم وإرداف التقديم بنصوص دالّة شارحة من كتابات جولدمان" (عصفور، ١٩٩٨: ١٨٨). ولمَ لا يكون دقيقا؟!

هكذا تمر الفكرة من الأصل إلى الحقل النَّقْديّ العربيّ عبر أفقين؛ أي لا محالة عبر وسيط، مذكور أو مهمل؛ فيصدر الكتاب في أرضه، وتمر مسافة مبهمة خالية، بعدها نجده في الحقل العربيّ. وهكذا، فإن أُفُق التَّلقِّي لدى النقاد العرب بعد منتصف القرن العشرين، من الذين اهتموا بنقل المنتج المعاصر آنذاك قبل عصر ثورة الاتصالات، كان مخيبا إلى حد كبير، أو مكسورا، وقد كان سببه في هذه الحالة أنهم كانوا يتعاملون مع المصدر بقليل من الاهتمام. ومن يتتبع البحث يجد أكثر من ذلك. وما يهمنا في هذا المقام هي تلك الصورة التي يمكن أن ترسمها أقلامهم لأُفُق التَّوقُّع، وكيفية إعداد الدراس العربيّ الذي يعتمد هذا الإنتاج؛ لتصل الحالة إلى ما هي عليه الآن، من كثرة الإنتاج غير المنظم، وغير الموحد، وغير المنمط على مستوى المصطلح.

وهذا التصرف تجاه النصوص النَّقدية الأوربية الذي اتخذ صفة الاجتزاء في بعض جوانبه، يوجد بطريقة أخرى موهمة، حيث تبعد المسافة النَّقدية أكثر عن المصدر. يرد في كتاب "نظريات معاصرة" لجابر عصفور فصلٌ كامل عن لوسيان جولدمان، ويخلو هذا الفصل من أيَّة إحالة إلى مصدر من مصادر المعلومات النَّقدية الواردة في الدراسة، فضلا عن أنه -كذلك- لم يُحلنا إلى مرجع لجولدمان نفسه. وقد يظن القارئ أن عصفور يقدم قراءته النَّقدية الخاصة حول جولدمان. (عصفور، ١٩٩٨: ٨٣- ١٠٦)

قدّم عصفور في مقالته "البنيوية التكوينية" أسماءً أجنبية مثل "ريمون بيكار R. Picard" و"سيرج ديبروفسكي" بوصفهما ناقدين للوسيان جولدمان، ولكن دون ذِكرٍ لما قدمه هذان الناقدان، ودون إحالةٍ مرجعية إليهما في أي موضعٍ من المواضع، ذلك على الرغم من المداخل المتقنة التي حررها عصفور حول المنهج، وعلى الرغم كذلك من كيفية انخراط هذه الدراسة في الحقل النَّقْدي التطبيقي العربيّ. وقد تعامل عصفور بالشكل نفسه مع كتاب بارت Barthes المعنون "عن راسين، 1963, Sur Racine" والذي تناول فيه قضايا النقد البنيوي، فلم يُحِلنا إليه في موضع من المواضع. ومن الواضح أن عصفور قد أجمل آراءً مختلفة مما اطّلع عليه؛ لِيقدم أفكار البنيوية التكوينية بشكل متكامل مبسَّط إلى القارئ العربيّ؛ ربما لإدراكه لواقع التلقي لدى ذلك القارئ

المتعطش لأيَّة معلومة، حتى لو كانت مجهولة المصدر، فيبني عليها دراسات، وكأنها مصدر مباشر للنظرية. ولذلك، فقد ظل هذا المقال المطوّل مصدرا مهما لكثير من الدارسين؛ نظرا إلى لغته النَّقدية الواضحة، ودقة موضوعه.

وقد أشرنا من قبل إلى ريمون بيكار، وكيف كان ترجمة مباشرة "متلقيا أول" في حقل نقدي يعج بالجدل حول موضوعات النقد الحديث، ومن ذلك كتاب بارت عن راسين، ردا على ما كتبه جولدمان عام ١٩٥٥م عن راسين في كتابه "الإله الخفي". أضف إليه سيرج ديبروفكسي الذي انتقد التوجه برمته. وفي المقابل، نجد أن جابر عصفور قد قدم مقالته حول المنهج الجولدماني معبرة عن أفق توقع منكسر، حيث وقف على مصادر مبهمة لا يمكن للقارئ أن يتعرف عليها بسهوله، بل إن القارئ الدارس قد اعتمدها مصدرا حقيقيا لدرسه؛ من ثم تتوالى أفق توقعات منكسرة عبر مراحل الدرس الأكاديمي.

ويمكن القول: إنّ عادة تحرير المقالات النَّقدية الخبيرة، كانت في مجملها تدور في هذا الفلك في النقد العربيّ الحديث، حيث يعتمد الناقد على خبرته في التأويل والتفسير والعرض. وتدعم هذه النقطة الانتقائية عندما تحدثنا عن كتاب "جمال شحيد" في هذه المعالجة. وقد تسهم هذه الصورة المختصرة في رسم أُفُق التَّوقُّع الذي كان يجعل آنذاك من المتلقين الأوائل مصادرَ ثانويةً، تمثل المتحدث الرسمي باسم المنهج.

وننتقل إلى دارس آخر، في مجال مختلف، وهو الباحث الأنثروبولوجي محمد حافظ دياب (١٩٣٨-٢٠١٥)، في دراسته (النقد الأدبيّ وعلم الاجتماع، مقدمة نظرية، ١٩٨٣) ونستمع إليه يقول: "ثمة مأخذ آخر يبدو أشد وطأة، حين يؤخذ على جولدمان إحالته الأدبَ إلى مخططات وموضوعات يمكن للفيلسوف أن يترجمها بالجودة ذاتها...". (دياب، ١٩٨٣: ٧١) وقد ورد هذا الرأي في سياق التعليق على إجراء "التماثل homologie" الذي افترضه جولدمان في قراءة الأعمال الأدبيّة، وبخاصة في كتابه "مقدمات في سوسيولوجيا الرواية"، وذلك في العلاقة بين الأعمال الكبرى الفردية والوعي الجمعي، حيث قرر بأن أصالة العمل لا تكون في النص الأدبيّ، ولكنها تكون في ذلك التماثل بين الأبنية الأدبيّة والأبنية الذهنية للجماعات والطبقات. (القللي، ٢٠١٠) ومن ثم كان تعليق "دياب" على هذه الفكرة على النحو المذكور.

ومن الواضح؛ نظرا إلى خصوصية التعليق، بل ولشهرته، في كل ما قُدم في الحقل النَّقْد الفرنسيّ حول جولدمان، أن "دياب" قد اعتمد المقولة ذاتها عند "سيرج دوبرفسكي" الذي أكد في مواضع مختلفة من كتابه "لماذا النقد الجديد؟" أنّ جولدمان قد اعتمد في تحليلاته على عرض أنماط Schéma. ولم يذكر ذلك دياب من قريب أو من بعيد. ويعلن دوبرفسكي - على سبيل المثال - في التعليق على قضية التماثل ذاتها، أنّ "الرؤية إلى العالم حسب فكرة جولدمان "ليست أكثر من خطاطة ذهنية Schéma، يظهر عبر التبسيط". (Doubrovsky, 1966: 144, 146, 148, 166).

ومن الاهتمامات البحثية لمحمد حافظ دياب الدرسُ الأدبيّ من منظور اجتماعي، وكذلك دراسة اللغة من المنظور ذاته، فقد قدم عام ١٩٨٠ كتابا عنوانه "مقدمة في علم اجتماع اللغة" وفي عام ١٩٩٦ دراسة بعنوان "إبداعية الأداء في السيرة الشعبية"، وكانت دراسته للدكتوراه عام ١٩٨٠ عن المهاجرين الجزائريين في مدينة مرسيليا الفرنسيّة نافذةً له؛ للاطلاع على الأدب ودراساته من مداخله الفرنسيّة، وبعدها عمله في جامعة "عنّابة" بالجزائر. وقد يشير هذا النوع من التكوين إلى الكيفية التي تأثر بها دياب بالمد الفرنسيّ في دراسة علم اجتماع الأدب. ومن الواضح كذلك، أن كتاب دوبروفسكي كان باب الدارسين إلى دراسة البنيوية التكوينية؛ فكما نلحظ فقد تردد مع غير دارس ممن ذُكروا في هذه الدراسة.

ويعتمد "محمد نديم خشفة" في كتابه "المنهج البنيوي لدى لوسيان جولدمان، ١٩٩٧" على كتاب سيرج ديبروفسكي (لماذا النقدُ الجديد؟)، ومما يؤسف له أن هذا الكتاب الأخير لم يُترجم إلى العربيّة؛ فقد كان له أن يغير كثيرا من وجهة نظر الباحث العربيّ فيما يقدمه من تطبيقات أو نظرات جزئية حول منهج لوسيان جولدمان. وقد كان الأَوْلى مما كتبه خشفة أن يقدم ترجمةً للفصل الذي جعله دوبروفسكي حول الدراسة الاجتماعيّة الأدبيّة للتيمة، وعنونه بـ"سوسيولوجيا التيمة Sociologie du thème", 1966: 126-169) Doubrovsky) ولكن، في المقابل، اقتصر خشفة على معالجة منهج لوسيان جولدمان في عدد من الصفحات كونت الفصل المعنون بـ"غولدمان ومذهبه النَّقْدي" (خشفة، ١٩٩٧: ٩-٢٠) منطلقا من الأفكار التي كونت هذا الفصل المذكور من معالجة دوبروفسكي؛ بل إن خشفة يقدم أفكار هذا الفصل دون أن يكلف نفسه أي تدخل فيها، ودون ذِكر أيّ مصدر. وبناء على ذلك، فقد تداخلت آراء صاحب الكتاب الأصلي، بالناقل العربيّ، فلم نعد قادرين على فصل الآراء بعضها من بعض.

انظر على سبيل المثال إلى الفكرة التي ناقش فيها خشفة الفرق بين "رولان بارت" و"جولدمان" حول رؤية كليهما لموضوع التماسك (Cohérence) وكذلك حول مسألة "الإبداع الثقافيّ La création culturelle" ذلك المصطلح الذي يمثل محورا مهما في رؤية جولدمان (خشفة، ١٩٩٧: ١٥). فلم يُحِل خشفة في هذه المعالجة إلى مصدر محدد. أضف إلى ذلك، أنه في الفصل الذي خصصه عن جولدمان، لم يطرح أيَّ اقتباس عن جولدمان نفسه، فقد قدم أفكار جولدمان عبر تعليقات نقاد فرنسيين آخرين لم يُحل إليهم (خشفة، ١٩٩٧: ١٤-١٨). وفي حقيقة الأمر، فقد كانت هذه عادة معظم من كتب عن الرجل ومنهجه النَّقْدي، إلا في القليل، حتى مع قرب المسافة النَّقدية مع المصدر.

يكتفي خشفة - في الفصل التعريفي بمنهج جولدمان - بأن يروي بصيغة الراوي العليم، بعبارات يسوقها مثل:

- يرى غولدمان أن موضوع الإبداع الثقافيّ...
- والكاتب في رأيه وسيط....
- ويسخر بارت من هذا الرأي بقوله....
- وجواب غولدمان: يوجد تفكير...".

وتتعدد العبارات التي تروي أفكارا، وتحكي عن تعليقات عن جولدمان وغيره في سياق الفصل المذكور دون أدنى إحالة، وذلك على الرغم من أهميتها بوصفها إجراءات مباشرة للتحليل الأدبيّ.

وعندما نستمر في قراءة كتاب "محمد نديم خشفه" نفسه نجده يعتمد اعتمادا واضحا على دراسة جاك لينهاردت J. Leenhardt المعنونة بـ"قراءة نقدية لنظرية جولدمان حول الرواية Lecture critique de la théorie goldmannienne du roman" (in: Duchet, 1979:172) دون أن يحيلنا إلى موضع واحد منها، ومن ذلك قول خشفة:

"كتب "جاك لينهاردت" موضحا الخلاف المعرفي ما بين نظرية غولدمان في كتابه (الإله الخفي) وبين نظريته في كتابه (من أجل سوسيولوجيا للرواية) [ويتابع بما اقتبسه من لينهاردت ومنه] فبينما ارتكز في كتابه (الإله الخفي) على الفرضيات حول فيورباخ Feuerbach لماركس، نراه في كتابه (من أجل سوسيولوجيا للرواية) يطور برهانا مشتقا من مصادر ماركس عن عملية "تشيؤ" الوعي المقتصر على المجمعات المنتجة للسوق" (خشفة، ١٩٩٧: ١٣). ولم يعقب خشفة بأيّ توثيق لتلك الفقرة التي أحالها إلى "جاك لينهاردت".

ننتقل إلى وجه آخر من أوجه العمل النَّقْدي، وهو التقديم إلى الترجمات إلى العربيّة. ومن النماذج العربيّة التي اعتمدت اعتمادا مباشرا على التنظير الفرنسيّ للنظرية الجولدمانية، وكذلك على الدراسات التطبيقية حولها، نجد المقدمة التنظيرية التي حررها الأنطاكي لترجمته كتابَ لوسيان جولدمان "العلوم الإنسانية والفلسفة، ١٩٩٦". فقد اعتمد المترجم - كلية - على مقالة مهمة حول النظرية حررها أحد المقربين من تلامذة لوسيان جولدمان، وهو (سامي ناير S. Naïr) وعنوانها "الشكل والموضوع في الإبداع الثقافيّ" "Forme et sujet dans la Création Culturelle" 1977. وقد انطلق المترجم ليسوق العبارات التنظيرية المتنوعة حول إجراءات المنهج، ومرجعياته، دون إحالة إلى تلك المقالة، ولا إلى (سامي ناير) أو إلى "لوسيان جولدمان" نفسه. ومما ساقه "الأنطاكي" من موضوعات في مقدمته، موضوع "التشيؤ":

"فمقولة التشيؤ إذن، فرضها الموضوع المدروس، ولهذا فهي لم تحتل مركز الصدارة في أعمال غولدمان الأولى التي هيمنت فيها مقولة الرؤية للعالم، وحتى سنة ١٩٦٤ سنة صدور "من أجل علم اجتماع للرواية" نجد، سواء في كتابات غولدمان المتكاملة كـ(الإله المختفي) أو في الحالة التي تتشكل من مقالات كـ(بحوث جدلية) أن المقولة التي تتكرر هي مقولة (الرؤية للعالم) ولكن ابتداء من هذه السنة نجد أن غولدمان تخلّى عن هذه المقولة ليستبدلها بمقولات أخرى كالتشيؤ والتناظر homologie والتبادل Echange".(جولدمان، ١٩٩٦: ١٩)

وهذه الرؤية التي يقدمها الأنطاكي في مقدمة الكتاب هي نفسها تلك الرؤية التي عالجها تلميذ لوسيان جولدمان "سامي ناير" في بحثه المذكور. ولا يخفى أن هذه الفكرة التي تأصلت في مخيلة الباحث العربيّ عن هذا التحول، أو التطور لدى جولدمان، هي فكرة لها أصولها عند سامي ناير (Naïr, 1977: 40). ومن اللافت في مقدمة "الأنطاكي" أنه قدم عملا مطولا عن السيرة العلمية للوسيان جولدمان، ابتدأها من عام ١٩٤٨ وحتى وفاته. وقد حاول تقديم صورة متكاملة عن مجمل أعمال جولدمان، ولكنها أتت في مجملها عن وسائط لا يعود فيها إلى أعمال جولدمان إلا لماما. وقد كان يكفيه في العودة إلى مفهوم "التشيؤ" إلى ترجمة عرودكي لكتاب جولدمان "من أجل سوسيولوجيا للرواية"، حيث نقرأ: "تعبر فكرة "التشيؤ réification" عند لوسيان جولدمان، وفي الفكر الماركسي كله، عن نزع التسييس dépolitisation ونزع صفة القدسية désacralisation ونزع الصفة الإنسانية déshumanisation" (عرودكي، ١٩٩٧: ٣١٤) و (Goldmann, 1969: 316).

وفي حقيقة الأمر، لتصور حجم الصورة العامة لحقل التلقي في العالم العربيّ على المستوى الأكاديمي، فإنه من الصعب العثور على أعمال لوسيان جولدمان كاملة في أيَّة مكتبة عربية، أو من الصعب، بالفرنسيّة أو بأيَّة لغة أخرى. وليس من قبيل المبالغة سهولة العثور عليها في مكتبة واحدة في فرنسا نفسها. وقد أسف "الأنطاكي" لأنه لم يجد كتابا للوسيان جولدمان عنوانه "الجماعة الإنسانية والعالم عند كانط - la communité humaine et l'univers chez Kant (1948)". (جولدمان، ١٩٩٦: ١٩) ولكن في حقيقة الأمر، فإنه ينقص الأنطاكي كمٌّ غفيرٌ من المقالات والكتب التي ألفها جولدمان ولم يظهر أثرها في كثير من الدراسات النظرية أو التطبيقية في الحقل النَّقْد التطبيقي العربيّ، ومنها منها دراسته عن الشعر التي لم أجد لها أثرا في كل من قرأ الشعر العربيّ قراءة جولدمانية. ونذكرها هنا لأهميتها، ولغيابها عن الدراسات التطبيقية العربيّة التي تبنت جولدمان، ودرست من خلاله الشعر العربيّ:

- الأولى حول شعر "سان جون بيرس":

- GOLDMANN Lucien (1969). « La Gloire des Rois de Saint-John Perse », paru pour la première fois en mars 1969. Texte rédigé par Lucien Goldmann à partir d'un travail collectif du (Centre de Sociologie de la Littérature de l'Université Libre de Bruxelles).

- والثانية حول قصيدة "القطط" بودلير التي أسست دراستها لجاكبسون وكلود ليفي ستروس لوجه النقد الحديث في فرنسا:

- GOLDMANN Lucien (1974). « Les Chats » étude écrite en collaboration avec Norbert Peters à Paris, Mars 1969, publiée dans : Structures mentales et création culturelle, Paris, Anthropos.

وعلى هذا المنوال من سيل التعامل المتساهل مع المصدر، تلك السمة التي ترسم معالم أُفُق التَّلقِّي في العالم العربيّ، يمكن أن نذكر بعض الأسماء العربيّة الآتية مع بعد المسافة النَّقدية أكثر عن المصدر، وتعدد آفاق المصادر الوسيطة فرنسيًّا وعربيًّا، وفي غير ذلك من اللغات:

يلفت أستاذ علم الاجتماع "فتحي أبو العنين" الانتباه إلى التغير الذي حدث في مسيرة جولدمان بين كتابين: الأول - الإله الخفي، والثاني - مقدمات في سوسيولوجيا الرواية. يقول: "ويبدو أن جولدمان قد تحوّل فيما بعد عن الربط بين رؤية العالم وطبقة اجتماعية ما، ففي علمه الموسوم (نحو علم اجتماع للرواية) ينطلق من مسلمة جديدة هي أن الحياة الاقتصادية تنعكس في الإبداع الثقافيّ عامة، وفي الشكل الأدبيّ بصفة خاصة..." (أبو العنين، ١٩٩٥: ١٩٩). ودون أدنى شك - عكس ما يجب قوله علميا- فإن هذه الفكرة قد هلكت من كثرة مناقشتها في الحقل الثقافيّ الفرنسيّ، وبخاصة من تلامذة لوسيان جولدمان، أولئك الذي رسموا معالم الحالة الثقافيّة للتلقي الآني للبنيوية التكوينية في فرنسا. وقد غدت فكرة تغير منهج لوسيان جولدمان مع الوقت فكرة مستهلكة في الحقل النَّقْدي في فرنسا، وأصبحت لكثرة دورانها معلومة مألوفة. وقد ناقشها الباحثان الفرنسيّان: سامي ناير، وجيرار فابر (Nair et Lowy G. Fabre, 1973: 40) (Fabre, 2001: 32, 123) وهما من تلامذة جولدمان كما أشرنا. ولكنّ "أبو العنين" يقدم فكرته ويطورها ويتجادل معها لتتراءى لنا مبدأ الاجترار، ولو كان من حيث الخبرة والعلم، الذي يترك انكسارا في أفق توقع حالة النقد الاجتماعيّ آنذاك، وفيمن تلاه كذلك.

وفي وقت سابق، لتكتمل دائرة أُفُق التَّلقِّي النَّقْدي، وحالاته، فنعود إلى تاريخ سابق يرسم المعالم نفسها من حيث انكسار أُفُق التَّوقُّع. في عام ١٩٧٠، قدم "أمير إسكندر" في دراسته المعنونة "لوسيان جولدمان، الفكر والمنهج" بعض الانطباعات عن لوسيان جولدمان، وكذلك عرض لتأثير لوكاش في لوسيان جولدمان، ولكنه قد غفل مصادره التي يعتمد عليها في التحليل والعرض. (إسكندر، ١٩٧٠: ٦٨) وعلى الرغم من شيوع فكرة هذا التأثير في الحقول النَّقدية المتباينة، فإنه يجب تحديد مصادر الأفكار المتقاطعة بين المنظرين، وبخاصة في الحقل الثقافيّ العربيّ؛ لأن عادة النقل تكون مجتزأة عن أصولها الفلسفية. وقد فعل الشيء نفسه فيما بعد، الناقد المشهور (جمال شحيد) على الشكل الذي ذكرنا.

ويبدو لنا أن هذه المقالة هي الدراسة الثانية - تاريخيا - عن لوسيان جولدمان بعد المقالات التي كتبها محمود أمين العالم. وقد تركت هذه المقالة أثرها في دراسة "علا مصطفى أنور" المعنونة "رؤى العالم في الأعمال الأدبيّة، دراسة لمنهج لوسيان جولدمان". وقد كان أثر "أمير إسكندر" واضحا آنذاك؛ لما انتهجه في تحرير المقالات والدراسات في الفكر والمجتمع، وينشرها في مجلة "الفكر المعاصر".

قدمت "علا مصطفى أنور" دراستها المعنونة "رؤى العالم في الأعمال الأدبيّة، دراسة لمنهج لوسيان جولدمان" ١٩٩٠ (أنور، ١٩٩٠: ٩٩-١٣٩). وهي دراسة تقوم كذلك على محاور تتناص فيها مع عدد من الدراسات الفرنسيّة، حيث اختفت فيها خصوصية الباحث، ومرجعية المكتوب. وقد تكون تلك الدراسة تمثلا للترجمة الإنجليزية لدراسة جولدمان المعنونة "المادية الجدلية والتاريخ الأدبيّ" Matérialisme dialectique et histoire de la littérature", 1980 :45-63) (Goldmann ". ويبدو واضحا أن ما قدمته علا أنور يعتمد كلية على ترجمة هذه الدراسة إلى الإنجليزية دون إحالة إلى النص الأصلي.

خاتمة:

هناك عدد ملحوظ من الدراسات النَّقدية التي بُنيت على منطلقات نظرية مبثوثة في الكتب والمقالات المذكورة في هذه الدراسة، ولا يسع الأمر لسردها هنا. ولكن عرض هذه العينة كان لما لها من أثرٍ في البعدين النظريّ والتطبيقيّ. وقد يكون قياس المسافة بين الأفقين: في المصدر، والمتلقي أمرا غير منصف للحقل النَّقْديّ العربيّ. ونحن لم نقارب الفكرة فحسب، بل وضعنا أسباب التحول في حقل التلقي النَّقْديّ العربيّ في مقابل الحقل المصدر أو الوسيط الأجنبي؛ لنتبين عوامل تغيير الأُفق أو انكساره.

وبعد هذا التنقل بين تلك العينة من الدراسات النظرية العربيّة التي عالجت تلقي "البنيوية التكوينية" يمكننا أن نؤكد أن الحقل النَّقْدي المتلقي الذي أثمر هذه الدراسات النظرية لم يكن على القدر الكافي من طاقة التلقي التي تقوم على المعالجة الحقيقية للمعطيات النظرية بمرجعياتها. وقد تبين ذلك عندما وصّفنا أُفُق الحقل النَّقْدي المتلقى، من خلال بعض الدارسين، وقسنا مدى قربهم من الحقل المصدر أو بعدهم عنه. ونتيجة ذلك، فقد بدت بعض الدراسات مجزوءة على الرغم من ادعائها تقديم النظرية أو معالجة تاريخ صاحبها في مجال التنظير والتطبيق. ولهذا السبب، فقد اتكأت جل الدراسات على مصادر فرنسية وإنجليزية، وأعادوا طرْحها باجتزاء أو تشويه ونقْلٍ أحيانا أخرى.

وبناءً على ما تقدم، فقد كان من الصعب مواصلة البحث التكاملي في نظريةٍ من النظريات النَّقدية، وبخاصة في هذا التوجه النَّقْدي ذي الأبعاد الفلسفية، مع غياب أكثر من ثمانين في المائة من أعمال جولدمان عن الحقل الثقافيّ العربيّ. أضف إلى ذلك صعوبة الولوج إلى عالم "البنيوية التكوينية" من بابها الفلسفيّ، مع غياب دراسة الفلسفة في كثير من الجامعات العربيّة، وكذلك في أقسام اللغة العربيّة، وغيرها. ويمكن القول، اتكاء على الشواهد التي قدمناها: إن هذا الاجتزاء، وذلك الغياب، قد أديا معا إلى تقديم صورةٍ عن تلقٍ سلبيٍّ للمنهج.

المراجع

إسكندر، أمير (١٩٧٠). "لوسيان جولدمان، الفكر والمنهج"، في: مجلة الفكر المعاصر، ع٦٨، ١ أكتوبر. ٢٣-٣٠.

أنور، علا (١٩٩٠). "رؤى العالم في الأعمال الأدبيّة، دراسة لمنهج لوسيان جولدمان"، المجلة الاجتماعيّة القومية، ع١، ج٢٧ (٩٩-١٣٩)، القاهرة.

جولدمان، لوسيان (١٩٩٣). مقدمات في سوسيولوجيا الرواية. ترجمة: بدر الدين عرودكي، ط١، اللاذقية، دار الحوار.

جولدمان، لوسيان (١٩٩٦). العلوم الإنسانية والفلسفة، ترجمة: يوسف الأنطاكي، مراجعة: محمد برادة، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة.

الحكيم، سليمان (٢٠٠٦). اعترافات شيخ الشيوعيين العرب، محمود أمين العالم. ط١، القاهرة، مكتبة مدبولي.

خشفة، محمد (١٩٩٧). المنهج البنيوي لدى لوسيان جولدمان. حلب، مركز الإنماء الحضاري.

دياب، محمد حافظ (١٩٨٣). "النقد الأدبيّ وعلم الاجتماع، مقدمة نظرية". القاهرة: مجلة فصول، ضمن عدد خاص (النقد الأدبيّ والعلوم الإنسانية) مج٤، ع١ (أكتوبر-ديسمبر)، ٥٩-٧٦.

شحيد، جمال (١٩٨٢). في البنيوية التركيبية: دراسة في منهج لوسيان جولدمان. ط١، بيروت، دار ابن رشد. (أعيد نشر الكتاب عام ٢٠١٣، بعنوان: البنيوية التكوينية، دراسة في منهج لوسيان جولدمان).

أبو العنين، فتحي (١٩٩٥). "التفسير الاجتماعيّ للظاهرة الأدبيّة، التراث وإشكاليات المنهج" في: مجلة (عالم الفكر)، مج٢٣، ع٣، ٤. ١٦٥-٢١٠.

العالم، محمود (١٩٦٦). "البحث عن أوربا: الأدب وقوانين السوق". مجلة المصورة، عدد نوفمبر، ٣٤-٣٥.

العالم، محمود (١٩٦٦). "البحث عن أوربا: نقد جديد أم خدعة جديدة". مجلة المصور، ٢١ أكتوبر، ٢٦ ٢٧.

العالم، محمود (١٩٨٤). توفيق الحكيم مفكرا وناقدا. القاهرة، دار شهدي للنشر.

العالم، محمود (١٩٩٧). "بداياتي اتسمت بالتمرد والتساؤل والقلق". مجلة الطريق، ع٢، ١٦٣-٢٠٦.

عصفور، جابر (١٩٩٨). نظريات معاصرة. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

القللي، محروس (٢٠٠٩). صياغة المصطلح في النقد العربيّ بين الترجمة واستحالتها. منشور ضمن أعمال مؤتمر "الذات والآخر في الثقافة العربيّة والإسلامية" كلية دار العلوم، جامعة المنيا، مصر، ٢٠٠٩.

القللي، محروس (٢٠١٠). دراسة الشعر العربيّ ولغز التلقي النَّقْد. منشور ضمن أعمال (اليوم العربيّ للأدب المقارن) الجمعية المصرية للأدب المقارن بالقاهرة، ٢٨ أبريل ٢٠١٠.

كولر، جوناثان (٢٠١٦). رولان بارت، مقدمة قصيرة جدا. ترجمة: سامح سمير فرج، مراجعة: محمد فتحي خضر، ط١، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

ياسين، السيد (١٩٩٢ [١٩٧٠]). التحليل الاجتماعيّ للأدب، القاهرة، مكتبة مدبولي.

المراجع الأجنبية

Doubrovsky, S. (1966). Pourquoi la Nouvelle Critique?: critique et objectivité. Mercure de France, Paris.

Fabre, G. (2001). Pour une sociologie du procès littéraire, de Goldmann Barthes en passant par Bakhtine. Hartmann, Paris.

Gadamer, H-G et al. (1976). Vérité et méthode: les grandes lignes d'une herméneutique et philosophique. E. Sacre et P. Ricœur (Trad.). D'après la deuxième édition. Seuil, Paris.

Goldmann, L. (1964). Pour une sociologie du roman. Gallimard, Paris.

Goldmann, L. (1980). Recherches dialectiques. (1ère éd. 1959). Gallimard, Paris.

Leenhardt, J. (1979). « Lecture critique de la théorie goldmannienne du roman ». in : Duchet, Claude (éd.) Sociocritique. Ed. Fernand Nathan, Paris.

Naïr, S. (1977). « Forme et sujet dans la Création Culturelle » in : Naïr, Sami, Le Structuralisme génétique, l'œuvre et l'Influence de Lucien Goldmann. Denoël-Gonthier, Paris.

Naïr, S. et Löwy, M. (1973). (présentation, choix de textes, bibliographie), Lucien Goldmann ou la dialectique de la totalité. éd. Seghers, « collection philosophes de tous les temps » n° 84, Paris.

Pageaux, D-H. (1994). La littérature Générale et Comparée. Armand Colin, Paris.

Rice, Ph. & Waugh, P. (Ed.). (1989). Modern Literary Theory, a reader. London: E. Arnold.

Robichez, J . (n,d,). « Picard Raymond - (1917-1975)». Encyclopædia Universalis,20/10/2021, http://www.universalis.fr/encyclopedie/raymond-picard/

The Academy of Europe. (n,d,). 30/10/2021, https://www.ae-info.org/ae/Member/Zima_Peter

Zima, P. (1973). Goldmann, dialectique de l'immanence. Edition Universitaires, Paris.